البعد التّداوليّ وإشكاليّة التّواصل في الثّقافة الشّعبيّة مقاربة من منظور سيمياء الثّقافة

The pragmatics dimension and the problem of communication in the popular culture An approach from the view of the semiotics of culture

الدّكتور: عبد الرّزاق بن دحمان

قسم الآداب واللغة العربية -جامعة محمد خيضر- بسكرة (الجزائر)

abderrazak.bendahmane@univ-biskra.dz

تاريخ الإيداع: 2020/10/29 تاريخ القبول: 2021/01/01 تاريخ القبول: 2021/03/15

ملخص:

تحاول هذه الورقة البحثية دراسة المكون الثقافي للموروث الشعبي من منظور سيمياء الثقافة،وهذا بالوقوف عند إشكالية التداول والتواصل بين وسائط الحضور الفعلي للكتابة ذات البعد الجماهيري والتأصيل المرجعي للكتابة ذات التكوّن النخبوي .

الإشكال المعرفي المطروح في هذا المقام هو كيف يمكن بناء ثقافة شعبية تؤسس لتخييل مرجعي قادر على تكوين ثقافة راسخة لها حضورها التداولي ،وتكون بذلك وسيطا بين ثقافة النخبة وثقافة الجماهير ، ولطرح هذه المواقف حاولنا استحضار منظومة (سيمياء الثقافة) في بعدها الاجتماعي محاولة لفهم الثقافة الاجتماعية والكيفية التي تترسخ بها مجموع القيم والأفكار لدى الأفراد والجماعات.

الكلمات المفتاحية / التخييل، التواصل، النخبة، التداول، سيمياء الثقافة.

Abstract:

This article attempts to study the cultural component of popularheritagefrom the point of view of semiotics of culture, and itis to stop at the problem of trade and communication between the media of the actualpresence of writingwith a mass dimension and the referencerooting of writingwith an elitist composition.

The cognitive problempresentedhereis how to build a popular culture thatestablishes a reference imagination capable of creating a well-established cultureit hasitstradepresence, it being a mediabetween the

culture of the elite and the culture of the masses, and to highlightthese positions, wetried to evoke the system of "semiotics of culture" in its social dimension in an attempt to understand social culture and how the sum of values and ideas are Anchoring in people and groups.

Keywords/Imagination, Communication, Elite, Trading, semiotics of culture.

استهلال:

لقد أحرزت سيمياء الثقافة قفزة معرفية في ميدان الدراسات الثقافية والأدبية.. ولم يكن هذا التطور حاصلاً لولا الانتقال الفلسفي والنقدي من مجال سيمياء الخطابات الأدبية وما دار حولها من منظورات بلاغية وتواصلية ودلالية.. إلى فضاء الدراسات الثقافية في أبعادها الكونية من ممارسات كلامية وانجازات اجتماعية وقيم ومعتقدات تراثية وأشكال مكثفة من الثقافة الشعبية الممتدة عبر التاريخ الإنساني، وبهذه النظرة الحديثة لعلم السيمياء:تجاوز الفهم السيمولوجي الطرح التأويلي والتفسيري لمختلف الانجازات الإبداعية ليصبح فهمًا يبحث في عمق حياة المعنى وكيفية التعامل مع الرموز والعلامات ومختلف الأنظمة.. وهذا* ما نجده ماثلاً في سيمياء الثقافة المشتغلة حول ثقافة الكون المرتبطة بالفضاءات الثقافية التي يعيش فيها الإنسان.

من هذه الأفكار تحاول هذه الورقة البحثية إثارة فكرتي التداول والتواصل في المنجز الثقافي الشعبي من منظور سيمياء الثقافة وكيف تتشكل وتتفاعل العلامات الثقافية في الخطابات الشعبية على اختلاف أشكالها.

1- التداول السيميائي للثقافة:

تختص التداولية كونها تدرس استخدام اللغة داخل الخطاب بطريقة تعكس الجانب النفعي لتطبيق الممارسة السلوكية وهذا من خلال ربط المحتوى الاجتماعي بإمكانيات التعبير اللغوي وصورة الأشياء كما هي في الكون وكما هي في تمثيل الوعي ولكن هذه المواصفة والتدقيق لا تثبت على حال. ولا تستقر على وضع كون الإنسان، وعبر حضوره الاجتماعي، يصنع حجابه الرمزي ويبني لغته العلامتية فتتشكل الأشياء في ذهنه عبر قنوات ما فوق لغوية، فيظهر الكون وكأنه حزمة من المعاني المقدّسة لها

طـابع الانفعـال والقداسـة وكـأنّي.. بالإنسـان لا يريـد الوضـوح ولا التجلـي بـل يريـد الغمـوض والتبـدد وهـذه حقيقـة أكـدها الفيلسـوف الألمـاني (نيتشـه) (844-1900) ،. حـين قـال : «إننـا لا نسـتطيع أن نخـرج مـن الاسـتعارات *فـنحن دائمـا نعـيش فـي المجـازات ونتشـرّب مـن أخيلتنـا الذهنيـة. إنّ حضـور المعنى الثقـافي للأشـياء لا يمكـن فهمـه إلا مـن خـلال النشـاط الإنسـاني الـذي يمارسـه الإنسـان في حياتـه التاريخيـة »[1]، لننـدمج مـع مختلف التغيرات الجذرية التي تفرضها سنن الكون.

يـأتي المنحى التـداولي كإسـتراتيجية معرفيـة تـدرس حيـاة العلامـة الاجتماعيـة في بعـدها السيميائي لتصبح اللغة ومختلف التعبيرات صورة مركبة لها حضورها المكثف في تفكيك البنى الثقافية في شقها التداولي من النظر في الطبيعة الثقافية ومختلف الظواهر النفسية المعبّر عنها بواسـطة الثقافـة الشـعبية مـن معتقـدات وقـيم تراثيـة وفلكلـور وآداب شـفوية وحكـم وأمثـال وحكايات وسير ملاحم شعبية، فكل هـذه الأنظمـة الثقافيـة تسيّجها سلسلة من الضوابط هي بمثابـة انسـاق ثقافيـة فـوق لغويـة لهـا تميزهـا التراثي والـدلالي في معرفـة خصوصـية السـلوك الاجتماعي، وعلى هذا الأساس المعرفي فإنه لا مشاحة في القول إنّ تحويل المعرفة الثقافية من سـياق العلامـات والرمـوز إلى سـياق الممارسـة والتفاعـل هـو جـوهر العمليـة السـيميائية كـون الثقافة الشعبية هي المدار الوحيد الذي يمكن النظر إليه من زاوية المقاصد السلوكية، فكثير مـن الأشـكال والرمـوز المجازيـة ومختلـف العلامـات مـن ألـوان التصـوير والرسـومات والأهـازيج الفلكلوريـة كلهـا أصـبحت ذات دلالات ثقافيـة لهـا معناهـا الخـاص لـدى المجتمـع الشـعبي، وعـن طريق الرؤيا السيميولوجية تتضح المعاني الفعلية للأفكار والعلامات. وهذا قصد «الكشف عن العلاقة التي تربط تجليات الثقافة الواحدة عبر تطورها الزمني أو بين الثقافات المختلفة أو بين الثقافة واللاثقافة»[2].

ومن مدار العمل السيميائي فإن الاشتغال الفكري والجمالي لفهم المعنى ضمن منظومة الثقافـة الشـعبية سـيكون بالاهتمـام الخـاص في دراسـة العلاقـة الوطيـدة بـين سـرّ العلامـات الثقافيـة والكيفيـة التي تتجلى فيها ضـمن المفهـوم الـدقيق والواسـع لمـدلول (ثقافـة) وإذا كانـت السـيمياء في بعـدها الفلسـفي على حدّ تعبير الباحث المغربي (سعيد بنكراد) هي التجليّ المباشر للواقعـة[3]، وأنهـا تـدريب للعـين على التقـاط الضـمني والمتـواري والمتمنـع فـإن معقـل التصـور

السيميائي التداولي سيظهر تلك الأنسجة الثقافية وطرائق تواصلها مع مختلف التعبيرات الشعبية. وهذا حسب مفاهيم سيمياء الثقافة يتطلب خطوات منهجية نحددّها في هذه المراحل:

1- الفضاء السيميائي.
2- الذاكرة.
3- التشويش والتعقيد.
4- المركز والهامش.
5- النظام الممنهج.

فالفضاء السيميائي هو الإطار الايبستي الذي تشتغل على منواله السلوكات والإنتاجات الثقافية، في حين أن الذاكرة هي المرجعية المخزنة لمختلف التجاوبات الثقافية ،فلكل ثقافة ذاكرتها كما أن لكل ذاكرة ثقافتها، وهنا يقارن أصحاب مدرسة «تارتو» «لموسكو» بين البنية السيميائية للثقافة والبنية السيميائية للذاكرة، فالأولى تهتم بعنصر الثقافة في مقابل اللاثقافة وكيف يحضر الآخر في (الأنا) الثقافية والثانية تخص المنجز الثقافي الذي تمارسه المجموعة الشعبية كما هو الحال في الأدب الشعبي والتمثيلات الفلكلورية أمَّا التشويش والتعقيد فيتمثل في صعوبة فهم النظام الثقافي نتيجة التراكم المعرفي والتعديل في الأنظمة والمعايير وهذا بدوره يعكس الصراع الثقافي بين المركز والهامش بين وعي ثقافي متأصل وثقافة وافدة تشق طريقها لتغدو هي الأخرى ثقافة متأصلة ومتجذرة فكل هذه المواصفات تسير وفق نظام ممنهج ترسمه جملة الأشكال التعبيرية ولاسيما الطقوس والحكايات الشعبية ذات الطابع التخيلي والعجائبي.

وبما أنّ الثقافة في المفهوم السيميائي التداولي هي سيرورة وليست بنية مغلقة ولهذا تشتغل سيمياء الكون بتوليدالمعنى وإدراجه في فضاء المعرفة الثقافية وهذا قصد فهم وتأويل صفة التعالق بين الشمولية واللاتجانس، فعن طريق خلق النصوص «استطاعت البشرية أن تتعلم تمييز الحبكات التي تعد أساسية في الحياة أي إعطاء معنى للحياة»[4]

ولا ريب أن ميدان الحبكة كما تصورها (يوري لوتمان) هي جوهر الإبداع الثقافي فالأشياء والموجودات التراثية لا تكتسي صفة التواجد والانتشار لدى الجماعة الشعبية إلاّ إذا أدمجت ضمن سياقات كلامية وسلوكية تضبط بدورها خاصية التواصل والتطور، فحياة القيم

والعقائد الدينية تحتفظ بخصوصيتها ضمن قانون النسق الثقافي المعبّر عن معنى الحياة، ولأنه وكما قال (كروتشه) «أن كلّ شيء ينبض بحياة الكل والكل موجود في حياة أي شيء»[5]، فإن مقولة (السيميوزيس) التي قال بها المفكر (سانرس بيرس) Charles Peirce 1839-1914 ستجد حضورها القوي في فهم وتفسير الأنظمة الثقافية، وفي شيء من التبسيط فإن أشكال التعبير الثقافي في منظومة الثقافة الشعبية هي الفضاء الأساسي الذي تتكون فيه فلسفة العلامة المندسة في روح المجتمع، وخير ما نستدل به في هذا المجال فضاء الحكاية الشعبية بكل أصنافها الفكرية واللغوية، فمن المنظور السيميائي تعد الطبيعة السردية للمجتمع الشعبي خاصية ذات بنية ثقافية تتجاوز الشكل اللغوي لتغدو علامة سيميائية مشبعة بالدلالات والمعاني، فالحبكة الفنية في قصص السير والملاحم الشعبية أثرت كثيرا في توجيه نمط التواصل الثقافي بين الأجيال، فحينما نعود إلى حكاية (بقرة اليتامى) وهي قصة شعبية متداولة في الأوساط الاجتماعية الشعبية ولها انتشار ورواج واسع في أنحاء المغرب العربي الكبير (الجزائر- تونس- المغرب- ليبيا) فإننا نستحضر تلك المرجعيات الثقافية ونقرأ التركيبة النفسية لرمزية هذه الحكاية والكيفية التي تفاعل بها المجتمع قصد استظهار معانٍ ذات صلة بالبعد الديني والنفسي لكل السلوكات، فالدراسات السيميائية في هذا المجال تنظر في السياق التداولي لفعل السرد والذي تحدده الثقافة المرجعية المشتركة بين شعوب المغرب العربي.. في حين يتم الاشتغال الثقافي حول ما تسميه السيمياء التداولية (الفعل في القول) (Allocution) إذ يتم إظهار كيفية فهم الكلام في اللحظة التي يقال فيها وهذا من خلال الوظيفة اللغوية والمحددة بمقولة (الفعل بالقول) (PerAllocution) وهو فعل عادة ما يحصل بفعل قول شيء ما فيحدث تأثيرات معينة في صاحب الحكي وجمهور المتلقين.[**]

02- سيمياء الثقافة الشعبية: منظورات ومضمرات

إنّ التحديد العلمي الذي يقتضيه الخطاب الثقافي يجعل من الثقافة كونًا عامًا تتحرك فيه جميع الأنشطة والأقوال الاجتماعية وهذا ضمن فضاء سيميائي واسع الدلالة له صفة اللاتجانس واللاتناظر كما له أيضا طابع الحوارية والتعدد والتحول وهذا ما اصطلح على تسميته (السيموزيس) وهو مفهوم فكري يدخل في (سيمياء الكون) كما حددّها (يوري لوتمان) وعليه فكل ثقافة[6]، ومن خلال فضاء السيميوزيس في كليته منذ لغة اليومي لمختلف

المجموعات البشرية ولغة المراهقين إلى لغة الموضة تعاين أيضا تحديدًا مستمراً لأنواع السنن هكذا فإن كل لغة تجد نفسها غارقة داخل فضاء سيميوطيقي خاص ولا يمكن أن تشتغل إلاّ بالتفاعل مع هذا الفضاء فالوحدة الأساسية للسيموزيس الآلية الفاعلة الصغرى لا تكون لغة معزولة ولكنها تكون كلية الفضاء السيموطيقي لثقافة معينة هذا الفضاء هو الذي أصطلح عليه (سيمياء الكون) وبهذه الرؤية انفتحت الثقافة على مدارات معرفية جعلت من الفكر الإنساني مدارا حيويًا في دراسة الوعي الثقافي وكيفية التحول الاجتماعي وهذا في مرحلة تاريخية عرفت فيها الكتابة التاريخية والنقدية تطورا حاسمًا، إذ تجاوز المؤرخ سقف الاهتمام بالحدث إلى الاهتمام بالبنيات والمؤسسات والذهنيات والارتجال من التاريخ الرسمي ودوائر المركز إلى تاريخ المهمشين وتاريخ البوادي وتاريخ التابوهات ومن التاريخ السردي إلى تاريخ الإشكالي والتفكيك المعرفي، وأتيحت للمؤرخ وفق هذه النقلة النوعية نصوص غير مألوفة في الكتابة التاريخية وهي نصوص مشحونة بالرموز والعلامات والإشارات التي تحتاج إلى تفسير وتأويل لا يمكن التعامل معها إلاّ بآليات سيميائية[7]، يؤكد علماء الاجتماع والانتروبولوجية الحديثة على أنّ جميع النصوص والخطابات المعرفية ترتكز في تأسيسها وتكوّنها على خلفية تراثية لها خصوصية الثقافة الشعبية فالأشكال الرمزية ومجموع الاستعارات والتراكيب المجازية والصور والإيحاءات فكل هذه الجوانب الجمالية قد وجدت طريقها من خلال الثقافة والموروث الشعبي، فما يشكل حضور الكتابة هو هذا (اللاوعي النص) والذي يعد ذاكرة لها فضاءها السيميائي الخاص، فالكتابة في منظورها الخارجي وشكلها التعبيري لها نسقها الشكلي المرتبط بشروط التلقي، إذ تغدو هذه النصوص نصوصًا ذات قطيعة معرفية مع المرجعيات إذ تتحول اللغة إلى كون سيميائي له طابع التشويش والتجديد ولهذا فنحن في بعض الحالات تقرأ نصوصًا لغوية لا تمثلها الثقافة الشعبية ولا نقرأ نصوصًا معرفية تعيد تأسيس الواقع الثقافي ولقد رأينا هذه الحقيقة في الكتابات السردية الحديثة فثمة كتابة سردية ذات منظورثقافي محددًا سيميائياً بمرجعيات تراثية وفلكلورية وهذا ما نقرأه من حفريات معرفية تعكس وعي الكاتب وهو يقلب الذاكرة الشعبية وبالتالي يكتسي العمل الروائي مضمرًا سرديًا يعود في تأصيله التاريخي إلى حوار الذات الكاتبة مع المنظومة الثقافية ذات التحديد الشعبي ولنا في بعض الأعمال الروائية الحديثة بعض من الدلائل الفكرية، فنحن حين نتعامل مع هذه

الأشكال السردية ينتابنا إحساس عارم بقدرة العمل على إثارة الشكل البدائي للثقافة بمنظورها الشعبي، فرواية (الدّقلة في عراجينها) للكاتب الروائي التونسي (البشير خريف) *لا تبتعد في كثير من الأحوال عن الحكاية الشعبية بكل ما تحمله من دلالات، فالقراءة السيميائية بإمكانها أن تفكك أنظمة العلامات عبر نسيج الكتاب وكذا دمج صورة الكاتب الثقافية من وراء تكوّنه الشعبي، فالمرجعية المضمرة هي وحدها التي خلقت عالم الرواية ومنحته ميزة الواقعية والتداولية، وبما أن "الحقائق تبقى خلف الأشكال الرمزية"[8] فإن خلق النموذج الوصفي لا يمكن أن يخرج أو يبتعد عن الفضاء السيميائي الذي كوّنه، (فالدقلة) من منظور سيمياء الثقافة لها أبعاد سيميائية كونها علامة مكثفة دالة والعراجين تحمل أيضا تشجرا سيميائيا ذا دلالة شعبية، فالمقولة من هذا الفهم تحمل بنية شعبية حتى على مستوى المعنى والتركيب وكأن هذا العنوان يقول لنا (الدقلة ليست في عراجينها) وحتى وإن كانت كذلك لابد أن تنفصل عن العرجون: فالبعد السيميائي لهذا المعنى يجعل من هذه العلامة بعدًا تواصليا ذا قيمة اجتماعية جدّ هامة والمتمثلة في علاقة الأصل بالفرع والجزء بالكلّ، لآن موضوع هذه الرواية يعالج الصراع الثقافي بين جيلين وكيف تؤثر البيئة الثقافية في سلوك الأفراد وأن صفة التغير والتحول صفتان تلازمان حقيقة المجتمع، فالدقلة لا تبقى في العرجون ولكن متعتها وحلاوتها هي أن تبقى في العرجون. هكذا هي جدلية البقاء والاندثار والحياة والموت، إن اختيارنا لمثل هذا الأنموذج السردي يعد تمثيلا بسيطا من نماذج ثقافية كثيرة في بلدان الوطن العربي، وبكلمة نقول إنه في مجال الثقافة الشعبية ليس هناك انفصال بين المبدع أو المتكلم وما يكتبه أو يتلفظ به وبين المتلقي على خلاف الكاتب في مجال ثقافة النخبة، وهي الثقافة التي لا تتواصل مع المرجعية الشعبية من الثقافات المهمشة، ولقد أكد (يوري لوتمان) من منظور (سيمياء الكون) «أن الأنواع الهامشية في مجال الفن تعد أكثر ثورية من الأنواع التي توجد في قلب الثقافة، إنها تتمتع بخطوة عالية وينظر إليها من لدن معاصريها مثل أنواع فنية بامتياز»[9].

حاولت الدراسات السميائية المعاصرة بكل مذاهبها وتياراتها الفلسفية والمنهجية أن تعيد للثقافة الشعبية مكانتها اللائقة التي كانت عليها في بداية مطلع القرن التاسع عشر (19) ليس بالدراسة فحسب ولكن بالنظر والتفسير الشامل لمعنى الحياة التي يحياها الإنسان وكذا تعميق التصور السيميائي والنظر في مسائل ثقافية مستحدثة كسقوط الهويات والمثاقفة وتراجع

المركزيات ومعاينة الجمهور الذي يعيش الحقيقة التي تخفي عدم وجود الحقيقة ... فالمساءلة السميائية وأمام التدفق الحر للمعلومات (free flowot of information) حاولت تفكيك الفعل الثقافي وتشريح سياج البراديغم الذي أصبح إطارا مغلقا لا يمكن للفرد أن يخرج عنه وأن كل شيء خارج هذا البراديغم يعد أمرا مشكوكا فيه ويكون موضع مساءلة... وعلى هذا المنوال استحضرت سيمياء الثقافة في بعدها التواصلي منظومة التراث الثقافي الشعبي وإعادة دمج أجناسه كثقافة لها فضاءها السيميائي الخاص وذلك عن طريق تجاوز النصوص الكتابة إلى معاينة الموضوعات غير لغوية كالألبسة والأطعمة والصور والنشاطات اليدوية والمورثات والأساطير والطبائع والسلوكيات ...وقد اتسع هذا الطرح الحداثي من خلال إسهامات جماعة موسكو التي وسعت من دائرة منتجي العلامات قرأت أن جميع مظاهر الكون ومخلوقاته ومنتجات الإنسان تحفل بالعلامات والرموز الدالة التي تندرج وقف أنظمة كلية متعددة ومتقاربة قادرة على توحيد الظواهر الإنسانية المتنوعة والمختلفة ففعل الثقافة هو مولد الأنظمة السيميائية[10]، ولعل الصفة الشعبية للمتن الثقافي قد وجدت حقيقتها في صورة المتخيل الرمزي، فالسير والمرويات الحكائية الشعبية تعد انعكاسا آمينا يعبر عن ضمير العقل الجمعي في صورة ذهنية متخيلة أو رموز فلكلورية، وتشكل حقلا خصبا لعالم السيميائيات الذي يلاحق المعاني المضمرة والرمزية المتخفية وراء سطور المتن الحكائي، ولكن يشكل أيضا مجالا خصبا للمؤرخ لأن المأثورات الشعبية بما فيها من ملامح وآهازيج تعبر برمزيتها الغارقة في الغيبيات والخيال عن واقع تاريخي اجتماعي معقد[11]، وفي هذا الشأن تحاول سيمياء الثقافة الوقوف ومعاينة الطرائق التي تتم من خلالها تهميش الثقافة الشعبية وجعلها ثقافة ثانوية لا ترقى إلى مستوى الخطاب المعرفي كما تظهره النخبة المثقفة.

إلا أن الدرس السيميائي أعاد قراءة المتن الثقافي ضمن آليات النقد السيميائي المعاصر مستثمرا في ذلك أبحاث التاريخنية الجديدة ونظريات المعرفة الثقافية ومفاهيم المثاقفة وصناعة الهويات، وفي شيء من التبسيط والتحليل يمكن لنا في هذا المقام استحضار المفهوم الحداثي للفنون الذي قام به النقاد الروس في مرحلة ما بعد الشكلانية وبعد أن استكمل الناقد (رومان جاكسون) نظريته حول التواصل. ومن بين هذه الطروحات ما قدمه الناقد التشكيلي (فيكتور شكلو فنسكي) (1823-1984) من آراء نقدية وجدت صداها في انجازات السيميائيين وأبحاثهم في

ميدان الثقافة الشعبية، ففي مؤلفة المتميز (انبعاث الكلمة) يرى (شكلو فسكي) أن الغاية من الفن هو نقل الشعور بالأشياء كما يجب أن ندركها وليس كما هي معروفة بالفعل ولن يتحقق ذلك إلا عن طريق مبدأ ' التغريب أي تغريبة الأشياء (Unfamiliar) وجعل كل المظاهر عسيرة الإدراك وهذا عن طريق نزع الألفة والاعتيادية التي أصبحت موجودة بيننا وبين الأشياء وهذا يجعل الأشياء مدركة وملحوظة بكيفية مغايرة وليست آلية ولا اعتيادية كما هي في الحياة فمهمة الفن هي خلق جديد للإدراك، فالصور والمعاني التي تستخدم في الآداب موجودة في الحياة لكن نحن الذين أصبحنا غير قادرين على إدراكها بسبب الألفة والتجاور وعن طريق المجاز تتشكل الأشياء من جديد وتظهر عن طريق (التغريب) وكأنها تدرك لأول مرة، وبالتالي فإن عنصر الحميمية والألفة هو الذي عطل حواسنا على فهم حقيقة الأشياء وحقيقة الأشياء في الفن فكلما تعمق التغريب كلما اقتربت الأشياء من إدراكنا الجمالي والفني...

هذا طرح فلسفي اعتبرته سمياء الثقافة محورا حساسا في تأويل العلامات الثقافية في مجال الدراسات الشعبية الحديثة فمضمرات الأشياء التي تظهرها الفنون الشعبية من حكاية وحكم وموروثات وأشعار وأساطير تصبح إحالات سميائية تؤطرها ذاكرة تخيلية تعيد اكتشاف الأشياء وفق سياقات رمزية أساسها الغرابة والدهشة والغموض. وبهذا الطرح المعرفي ويمكن القول إن تشكل المظاهر الكونية وفق فعل الغرابة لن يكون ذا شأن إلا إذا تحولت هذه المظاهر وعن طريق الترميز والتخييل إلى أشكال فنية يشتغل على منوالها الذهن البشري وتكون في نهاية المطاف الوعي الجمعي الذي يستوعب الحقائق وهي ترحل من الألفة إلى الغرابة، وهذا ما أكدته (سيمياء الكون) في كثير من الأبحاث والدراسات الجادة حول الثقافية الشعبية.

3- تحولات الثقافة:

مقاربة في التكون والإشتغال : طرح المفكر الفرنسي«جان بودريار» (1929-2007) وهو من رواد مفكر ما بعد الحداثة في مؤلف الشهير «الحقيقة العائمة»فكرة ذات قيمة معرفية راسخة الحضور وهي «اختفاء الواقع ونشوء فوق الواقع»، وهي مقولة لها مرجعيتها الفلسفية و الفكرية في تحديد مفاهيم الكون وتشكيلاته الثقافية، فالقول بنظام الثنائيات وحصر الثقافة في منظومة التراكمات التاريخية والتراثية وعلاقات الدال بالمدلول وتنظيم الهوايات والأجناس فكل هذه المواصفات لم تعد مرضية معرفيا في مرحلة زمنية أساسها التعقيد والتلاشي

والتحول المستمر فانهارت المدلولات وتلاشت المركزيات وغدا من الصعوبة بمكان مقاربة النظام المعرفي مقاربةعلميةدقيقة،(وقد كان لثورة الاتصال والمعلوماتية الدور الكبير في إحداث مجموعة من التحولات المترابطة كلها في خلق فضاء افتراضي يهندس للوعي الجديد في وكل مجالات الحياة اليومية وهو ما أثر تأثيرا مباشرا في الأنساق المعرفية التي باتت محكومة بالبراديغم[12]، وعلى إثر هذا التحول انبثقت صورة ثقافية وجدت صداها في البحث السيميائي المشتغل على فكرة الثقافة والمعرفة الإنسانية فاستحضرت بذلك الممارسة النقدية بعض السياقات التعبيرية والنظر إليها من زاوية التأصيل المرجعي للثقافة، وهذا بعد أن تفطن علماء السيمياء إلى حقيقة أن سبب تعقد الحياة وسقوط الهويات وتراجع الواقع إنما سببه يكمن في إشكالية التواصل واندثار المخزون التخييلي للذاكرة الإنسانية فلم يعد الذهن البشري قادرا على قراءة أنساقه الماضية ولا على إيجاد معنى يضخه في صورة الماضي فانقطعت بذلك روابطه الوجدانية بماضيه وحاضره فتضعضع المفكر فيه وسقط المتخيل وأصبح وهما وذاكرة منسية، فالإشكالية السيميائية في هذا الطرح ومن منظور سيمياء الكون ترى أن تغييب فعل العلامات وعدم قدرتها على الاشتغال كان بسبب تهميش الرمزية التاريخية لمقولات الثقافة وانسحاب الماضي وتقويضهبمستحدثات ثقافية مبينة على التفكيك والفوضى والتلاشي والهيمنة الأحادية فلم تعد ثقافة الهويات تميز بوعيها بين ما هو أصلي وثابت في ثقافتها وما هو نسخي وعارض وهامشي وعليه فإن الموروث الثقافي فقد صلته بالحاضر نتيجة سقوط الثقافة الجماهيرية وبروز النخبة المثقفة ذات التكوين السلبي ،هذه النخبة (الإنتليجنسيا) التي حولت الفكر الثقافي إلى حالة التسلط والتمركز المعرفي والنفوذ الإيديولوجي، وبهذا المفهوم فإن كثيرا من الخطابات الأدبية والفكرية والنصوص الثقافية كان لها انشغال سيميائي كمي في إظهار قيمة العلامات الثقافي وكيف تتموقع فكريا ضمن خطابات الآخر كون التمثيل السيميائي للثقافة يعتمد بضرورة وجود الآخر إذ لا يمكن إن يكون هناك (نحن) إذا كان (هم) لا يوجدون[13]، ولكي نقرب هذه الفكرة يمكن لنا استحضار (ثقافة الرحلة)(أو «أدب الرحلة» كخطاب مشبع بروح الاستشراق الجديد ،فمن وراء هذا الجنس الفني تتجلى أنظمة العلامات السميائية فتأخذ دلالتها النسقية وفق قانون اللاتجانس والاختلاف والحوارية.

وفي هذا النوع من الخطاب يتعامل المنهج السميائي مع الأنظمة الثقافية المتعددة قصد تأويلها وإدراجها ضمن سياقات المشاهد الكلامية والتشكيلات المعمارية وأنظمة القيم السلوكية لتكون علامات سيمائية تكشف عن طبيعة الفعل الثقافي وتشكيلاته المتنوعة.

يظهر كتاب (ثلاث سنوات في شمال غربي إفريقيا)* للأديب الرحالة الألماني (هاينريش فون مالنتسان) (1826-1874) عالما وكونا ثقافيا منفتحا على معارج معرفية متنقلة في الزمان والمكان في هذه المؤلف احتفاء واسع بخصوص الأمكنة والمواقف السلوكية والتعبيرية وكل ما له علاقة بالمكونات الثقافية إنه سفر عبد خيوط سير ذاتية تنحت دلالاتها من تراكيب الوصف وجماليات التصوير.

من منظور سيمياء الثقافة تشكل منظومة العلامات كذلك رمزية وأساليب وإشارات أيقونية ترسم المنهج الثقافي للأنساق الجزائرية وكيف أظهرهاالآخر من خلال رؤى ثقافية جد متباينة فكل محطة تاريخية هي معلم من محادثة أو تصوير له حضور ثقافي تؤكده المعاينة السيميائية فترى فيه كونا ثقافيا تتقاطع من خلاله تحولات الوعي الثقافي في مرحلة جد حساسة من تاريخ الشعب الجزائري فلقد ظلت المؤسسة غير اللغوية من المنظور السيميائي شخصية جماعية مجردة قامت بدور أساسي في الحفاظ على الكيان الجزائري، ومن ذلك ما تعلق باللباس والشكل واللون والممارسات والنظام الغذائي والطقوس والأعياد والعمران[14]، ... إنها الثقافة التي تحاور الثقافة.

يقول (مالتسان): (لقد كان الفرنسيون يحتقرون الأهالي إلى أبعد حدود وهذا ما جعلهم لا يهتمون بدراسة عاداتهم وتقاليدهم أدنى اهتمام) فعندما تكون للمرء قضية مع أناس متمسكين بعاداتهم وتقاليدهم إلى حد التعصب لها مثلما هو الحال عند هذه القبائل فإن على المرء أن يتذكر أن أي مساس بهذه التقاليد المقدسة قد يجعل من الصديق عدواً لدوداً بالنسبة إليه، إلا أن من العسير على الفرنسيين أن يهتموا بخصائص هذا الشعب الذي يضطهدونه[15]، في هذا الخطاب اشتغال سيميائي كونته ثنائية المركز والهامش من منطلق الثقافة الكولونيالية والتي غيبت أساليب الحوار الثقافي على حد تعبير الكاتب لإيمانه الراسخ بالقيمة الحضارية للممارسات الثقافية وأنه هناك علامات أكثر فتكا من السلاح والإيديولوجيات المكدسة في الكتب والأذهان، كتلك التي لا تقيم آية صلة بالمحيط الخارجي

وخصوصياته أم تلك التي تسعى إلى استرداد ذاكرة الآخر في سياق متعارض مع جوهر العلامات المحلية ذلك أن العلامة تنشأ وتكبر وتتجذر في المجتمع عبر الوقت إنها شعب خافت لكنة حاضر ، وفعال ومحرك[16]، إن مثل هذه النصوص وبطابعها الخارجي تجعلنا نعيد التفكير في المكون الثقافي وكيف كان المرور الشعبي مكونا أساسيا في حياة الفرديقول (مالتسان) في مقام آخر وهو يتحدث عن أحداث المدن الجزائرية (كانت مدينة سكيكدة مدينة مثالية يتمنى مثلها مئات الفرنسيين في الجزائر، فهي مدينة فرنسية حديثة فليس فيها بيت حضري ببواكيه الهوائية، ولا فناء عربي بأعمدته العربية الجميلة ولا أسواق ولا أروقة ذات الطابع الشرقي ولا مسجد ولا منارة ... فالفاتحون لم يأخذوا أي شيء يدل على عبقرية الأهالي الخلاقة)[17]، من البعد الثقافي يأخذ المكان هنا بديلا مرجعيا عن المكان المحلي، ومن وجهة نظر سيمياء الثقافية فإن المواقع السميائية تكشف عن مركزية وهيمنةكلية تحاول الثقافة الفرنسية زرعها وتأسيسها كبديل للثقافة العربية وهذا بواسطة نكران الآخر وتغييبه كليا وهذا من خلال إبادة العلامة التاريخية وتدمير خصوصيات وجماليات المكان... ولقد استحضرنا هذه النصوص الثقافية. لا لغرض التوصيف أو التفسير بقدر ما أردنا إظهار البينة الثقافة لفلسفة أدب الرحلة وكيف يتم التفاعل والحوار بين الثقافات والمعارف، فالمادة الثقافة التي احتواها هذا الكتاب تمثل كونا سيميائا طافحًا بالعلامات الرموز والتشكيلات البصرية، فالرحلة من هذا التصور هي فضاء سيميائي قائم بحد ذاته يشتغل فكريا وجماليا حول مبدأ الألفة والحوار والتناغم الثقافي وهذا ضمن ما نسميه (سيمياء الكون)

4-بؤس الثقافة:

ومن هذا التفكير تتحدد مرجعية التخييل الجماعي كونها مرجعية غائبة تطلب آليات وأدوات ثقافية تكتسبها الجماعة البشرية من خلال قواعد التربية والتكوين والتعليم في السائدة في المجتمع والقادرة على التعامل مع الأصول الثقافية والحضارية ،وبهذه الكيفية يصبح التعامل مع المنطلقات الشعبية تعاملا بديهيا وعفويا تتناغم فيه تطلعات الحياة مع مواصفات الوعي الغائب و المتمثل في الأساطير والخرافات والمعتقدات التراثية والفولكلورية ،ومن هذا الطرح تأخذ التداولية النص الشعبي (الكتابي والشفوي) كتمثيل واقعي له حضوره المتميز في تجسيد منطلقات التخييل الجماعي ،والذي له دور حاسم في فهم وقراءة التراث الثقافي

والحضاري الخاص بالطبقة الشعبية ،ومن هنا يتم تطويع الثقافة الشعبية لتكون محفزا في صناعة المرجع المعرفي للجماعة الشعبية ،والتي بدورها تكون قادرة على التفاعل مع عناصر التراث وقادرة أيضا على استحضار ثقافة النخبة المجسدة بواسطة الكتابة السردية والجمالية لمختلف الأجناس والأشكال ،ولاسيما في زمن تداخلت فيه المفاهيم والقيم فلم نعد نفرّق بين ثابت ومتحول ،وقومي وقطري ،وأصيل ووافد .....

وأمام موجة التحول الثقافي وتغير المعرفة الانسانية والتاريخية تجاوزت سيمياء الكون نطاق التحليل السيميائي للنصوص والخطابات ودراسة الثقافة من منظور أحادي لتغدوفضاء مفتوحا لكل الأنظمة والعلامات الخاصة بالمعرفة الإنسانية، ولهذا توسع الاستعمال السيميائي في تأويل المظاهر الكونية التي أصبحت على درجة عالية من التعقيد الغموض نتيجة تضعضع الثوابت الثقافية وتراجع العلاقات الإنسانية وإفراغ ثقافة النخبة من محتواها النضالي العلاقات الإنسانية وإفراغ ثقافة اللجنة من محتواها النضالي فلم يعد للمعنى المفضي إلى غاية ممكن في نسق المعقولات بعد أن أصبح وجود الإنسان في الحضارة الجديدة يقود إلى تفكيك المعنى في ظل سلطة الواقع الافتراضي(Virtual Reality)الذي رسخ وعي الانفصام وثقافة التذرر في كل شيء وزرع الخلاف بين الثقافة الواحدة بوصفها ثقافة هدف وثقافة الأطراف بوصفها حكايات رمزية حقيقية، لأن حكايات المصير الفردي للمرء في رواية ما بعد الكولوينالية هي دوما كناية عن حكاية رمزية للخراب الذي حل بوضع الثقافة[18].

وفي لجنة ما يحدث وأمام صورة هذا الواقع المنزّل سقطت النخبة المثقفة وتعمق الشرخبين ثقافة الجمهور (الثقافة الشعبية) وثقافة الفكر المتعالي (ثقافة السلطة وثقافة النخبة) فاختفت بذلك الموروثات الشعبية المفعمة بقدرات التخييل العفوية والوجدانية واندست عبر مرجعيات ثقافية فلم يعد المفكر فيه قادرا على ضخ المعنى أو أن يوحى بنصيب من الخيال ولو على سبيل الحلم وصناعة الوهم.

خلاصة:

حاولنا في هذه الدراسة إثارة موضوع الثقافة الشعبية من منظور سيمياء الثقافة وكيف تتأسس هذه الثقافة من خلال مبدأ : التداول والتواصل، ومن الصعب في الحيز الذي يفرضه

حجم الدراسة القيام بمسح شامل لرصد مختلف هذه الأفكار والتصورات، إلا أننا حاولنا رصد بعض الأفكار نجمعها في ما يلي:

1- إن إشكالية عدم التواصل في الثقافة الشعبية من منظور سيمياء الكون (وسيمياء الثقافة) مرده إلى اتساع الهوة وتفاقم ملمح الاتصال بين الثقافة الشعبية وثقافة النخبة وهذا واقع كرسته كتابات النخبة التي لم تفلح في تمرير خطابات الثقافة الجماهيرية وجعلها ثقافة أصلية ومرجعية.

2- بلغة (السيميائين) فقدت ثقافة الراهن مرجعيتها التاريخية لإعتقاد العامة وتوهمهم بأن الماضي بكل ما يحمله من علامات ثقافية لم يعد قادرا على تمثيل الحاضر وأن عناصره الثقافية منفصلة عن الإحساس بالوجود..

3- أثبتت الدراسات السميائية المعاصرة أن ضعف التخييل وتراجع قدرات الإحساس كان سببه تغييب الثقافة الشعبية بكل أجناسها التعبيرية ،فلم تعد العلامات الثقافية قادرة على منح الحياة في الروح والأشكال.

4- تعد الحكاية الشعبية في الثقافة الجماهيرية مصدرا معرفيا في حياة المجتمع ولها تأثير واسع الدلالة في تكوين قدرات التخييل وتوجيه الذهن نحو التفسير والتأويل، ولذا نراها مجالا خصبا للدراسات السميائية ولاسيما سمياء الثقافة.

الهوامش:

[*] ينظر: نتشه: هكذا تكلم زرادشت: (883-1885).

[1] - جون كلود مارتان: ما التواصل، ترجمة سعيد بنكراد، مجلة علامات، المملكة المغربية، ع 2، 2004م، ص 44.

[2] - عبد الله ابراهيم وآخرون: معرفة الآخر، مدخل إلى المناهج النقدية الحديثة، المركز الثقافي العربي،بيروت، الدارالبيضاء،ط1، 1996، ص 109.

[3] - سعيد بنكراد: السميئيات مفاهيمها وتطبيقاتها، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، المغرب، ط3، 2003، ص 10.

[4] - ينظر تودوروف وآخرون: في أصول الخطاب النقدي المعاصر: تر: محمد المدني، الدار البيضاء،ط2، 1989، ص 8.

[**]- ينظر: نبيلة ابراهيم: سيرة الأميرة ذات الهمة، دراسة المقارنة، القاهرة، ط1، 1994،

[5]- يوري لوتمان: سمياء الكون،ترجمة :ع/المجيد نوسي،بيروت/الدار البيضاء 2011، ص17

[6]- ابراهيم القادري بوتشيش: علاقة التاريخ بالسيمولوجيا، مجلة علم الفكر، جمهورية مصر العربية، ع 176، أكتوبر / ديسمبر 2018، ص 178.

* "الدقلة في عراجينها" للروائي التونسي بشير خريف "1917- 1983" سلسلة " عيونالمعاصرة ،دار الجنوب 2000 تونس

[7]- فيليب سيرنج: الرموز في الفن- الأديان – الحياة، ترجمة عبد الوهاب حباس، دار دمشق للنشر، ط1، 1992، ص 499.

[8]- يوري لوتمان: سمياء الكون،مرجع سابق، ص 42.

9-هيثم سرحان: الأنظمة السميائية، دراسة في السرد العربي القديم، دار الكتب الجديدة، بيروت، ط1، 2008، ص60.

10- ابراهيم القادري بوتشيش: علاقة التاريخ السيمولوجيا، مرجع سابق، ص178.

11- هيثم سرحان: الأنظمة السميائية، مرجع سابق، ص60.

12- ابراهيم القادري بوتشيش، مرجع سابق، ص178.

[13]- عبد القادر فيدوح: تأويل المتخيل: السرد والأنساق الثقافية إصدارات صفحات، سوريا، الإمارات، ط1، 2019، ص 23.

[*]- راجع في هذا المقام: الكولونيالية الجديدة، مفاهيم الاستشراف الجديد، خاصة عند: المفكر الفلسطيني، (إدوار سعيد).

[*]هايتريش فن مالتسان: ثلاث سنوات في شمال غربي افريقيا ترجمة: أبو العيد دودو الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، ط1، 1979.

14- سعيد بوطاجين: هاينريش مالتسان: ثلاث سنوات في شمال غربي افريقيا، المقاولة المركبة، مجلة الموروث،جامعة مستغانم، ع 02، 2013، ، ص 95.

15- هاينرش فان ملتسان: ثلاث سنوات في شمال غربي إفريقيا، مصدر سابق: ص 117-119.

16- سعيد بوطاجين: المقاومة المركبة: مرجع سابق، ص 25.

17- هاينرس فان ملتسان: ثلاث سنوات في شمال غربي افريقيا، مصدر سابق، ص 211.

18- عبد القادر فيدوح: تأويل المتخيل: مرجع سابق، ص 18.

قائمة المصادر والمراجع:

1. ابراهيم القادري بوتشيش: علاقة التاريخ بالسيمولوجيا، مجلة علم الفكر، جمهورية مصر العربية، ع 176، أكتوبر / ديسمبر 2018.
2. تودوروف وآخرون: في أصول الخطاب النقدي المعاصر: تر: محمد المدني، الدار البيضاء،ط2، 1989.
3. جون كلود مارتان: ما التواصل، ترجمة سعيد بنكراد، مجلة علامات، المملكة المغربية، ع 2، 2004م.
4. سعيد بنكراد: السميئيات مفاهيمها وتطبيقاتها، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، المغرب، ط3، 2003.
5. سعيد بوطاجين: هاينريش مالتسان: ثلاث سنوات في شمال غربي افريقيا، المقاولة المركبة، مجلة الموروث،جامعة مستغانم، ع 02، 2013.
6. عبد القادر فيدوح: تأويل المتخيل: السرد والأنساق الثقافية إصدارات صفحات، سوريا، الإمارات، ط1، 2019.
7. عبد الله ابراهيم وآخرون: معرفة الآخر، مدخل إلى المناهج النقدية الحديثة، المركز الثقافي العربي،بيروت، الدارالبيضاء،ط1، 1996.
8. فيليب سيرنج: الرموز في الفن- الأديان – الحياة، ترجمة عبد الوهاب حباس، دار دمشق للنشر، ط1، 1992.
9. هيثم سرحان: الأنظمة السميائية، دراسة في السرد العربي القديم، دار الكتب الجديدة، بيروت، ط1، 2008.
10. يوري لوتمان: سمياء الكون،ترجمة :ع/المجيد نوسي،بيروت/الدار البيضاء 2011.